

اللغة والفكر أركانهما ووظائفهما

المدرس الدكتور

أيمن صالح نعمة

جامعة البصرة/ كلية التربية للبنات

الملخص:-

إن البحث في علاقة اللغة بالفكر يدور في حلقة مفرغة لم يتوصل فيها لحد الآن إلى حل ؛ ولذا جاء هذا البحث ليستظهر أركان اللغة والفكر ووظائفهما كلا على حدة لينطلق منها إلى سبيل يهدي إلى حد كل منهما مع الآخر

فجاءت الدراسة على ثلاثة دوائر : (دائرة اللغة ، دائرة الفكر) وما لهما من أركان و وظائف ، ثم اختتمت بالدائرة الثالثة وهي : (دائرة اللغة والفكر) وما أحاط بها من نظريات مبينة صلتهما أحدهما بالآخر .

***The Language and Thought of
Their arrials and their functions***

D.Aymen Salih Neamah

Basra University/ College of education for women

Abstract:

that the search in relationship of language Takr revolves in a vicious in which it has not yet been resolved ; departments of the circle of trust , the circle of thought /and its weight and function and then sealed the circle of the gums a circle Agha and thought /

and surrounded by the theories described for two cases Aden.

المقدمة:-

الإنسان كائنٌ اجتماعي بالفطرة. فهو لا يستطيع العيش منعزلاً عن باقي أفراد جنسه، ولهذا فقد استعمل أكثر من قناة للاتصال بالآخرين ومد جسور الألفة. واللغة إحدى هذه القنوات التي يستعملها الإنسان للاتصال والتواصل. بل لعلها القناة الأهم في ذلك، لكونها القناة التي يستطيع الإنسان أن يعبر بها عن الأفكار وعن نفسه (نقل المشاعر والأحاسيس والعواطف). ولذا فإن الصلة بين اللغة والفكر المعبر عنه بها وثيقة جداً، فنكاد لا نجد فكراً من دون لغةٍ، أو لغة من دون فكر إلا في حدود ضيقة جداً لا تدخل في إطار اللغة.

فالواقع لا يستطيع أن يفصل بين اللغة والفكر إلا أن البحث العلمي يضطر دائماً إلى أن يعبر عن كل جانب من جوانب النشاط الإنساني تعبيراً مستقلاً عن غيره. ولذا فقد قسمت الدراسة على ثلاث دوائر:

١- دائرة اللغة.

٢- دائرة الفكر.

٣- دائرة اللغة والفكر.

فتناولت الدراسة كل دائرة على حدة ، وبيّنت الأثر الذي تؤديه موهوبات الإنسان الفلسفية وبيئته الاجتماعية في كل من الدائرة الأولى والثانية.

أما الدائرة الثالثة فقد خصصت لمناقشة الرأي الذي كان سائداً قديماً القائل: إن اللغة وعاء الفكر، ثم بيّنت الدراسة قصور هذا الرأي ، ثم ذكرت نظريات اتصال اللغة بالفكر، وهي ثلاث نظريات (نظرية العزل المطلق ، نظرية ذوبان الفكر في اللغة ، ونظرية الاستقلال النسبي بين اللغة والفكر)

ثم أردف البحث بقائمة سجلت فيها أهم النتائج التي انتهى إليها ومنها : أن اللغة والفكر لهما المراكز المخية نفسها ، ويحتاجان إلى الأعضاء الفلسفية نفسها التي تسهم في عملية تحقيقهما، وأنهما متساويان في أثر المجتمع في شكلهما ومضمونهما.

ولذا نمثل لهما بدائرتين متقاطعتين ، الأولى دائرة الفكر والثانية دائرة اللغة ، وأن منطقة التقاطع تسمى (بالفكر اللفظي) ويمكن تسميته لغة أو فكرا تجوزا . ونسمي دائرة الفكر المستقل نسبيا عن اللغة (الفكر العملي) المعبر عنه بالإشارات . أما الدائرة الأخيرة وهي دائرة اللغة المستقلة نسبيا عن الفكر فيمكن تسميتها (اللغة غير الفكرية) ومنها الانفعالات .

وأغلب الأفكار التي نوقشت في البحث من كتاب (اللغة والفكر) لنوري جعفر الذي حاول فيه سد النقص الحاصل من دراسة علماء اللغة والاجتماع والفلسفة الذين درس كلّ منهم اللغة والفكر بمعزل عن الآخر. أي أن علماء اللغة والاجتماع لم يدرسوا اللغة والفكر على وفق معطيات علم الفلسفة ، و أن علماء الفلسفة لم يدرسوها على وفق معطيات علم اللغة والاجتماع. وقد مال البحث إلى الاستئناس بآراء الباحثين الذين تحدثوا عن الصلة بين اللغة والفكر في نتائجهم اللغوية، وانتقاء تلك الآراء بالصورة التي تنسجم مع الحقيقة التي يسعى البحث لإثباتها وهي أن اللغة والفكر كالمركب الواحد المكون من جزأين والذي ينتفي بانتفاء أحد جزئيه .

١_ الدائرة الأولى (اللغة): -

اللغة كما يعرفها ابن جني هي: ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))^(١) أي أن اللغة في دائرتها الاجتماعية وسيلة من وسائل الاتصال البشري. فهي تنقل الأفكار والعواطف والانفعالات وكل شيء تستوعبه كلمة (أغراضهم) في تعبير ابن جني إلى الآخرين. ولعل التعريف الذي يُفضي إلى استيعاب حقيقة اللغة ومظاهرها ووظائفها هو ما وضعه (محمد محمد يونس علي) في كتابه (وصف اللغة العربية دلاليًا) يقول: ((إن اللغة نظام من العلاقات المتواضع عليها اعتباراً التي تتسم بقبولها للتجزئة ويتخذها الفرد عادةً وسيلة للتعبير عن أغراضه ولتحقيق الاتصال بالآخرين وذلك عن طريق الكلام أو الكتابة))^(٢).

والحقيقة أن الحديث عن كون اللغة نظاماً من العلاقات يفضي إلى الحديث عن علاقة اللغة بالمنظومة الاشارية الحسية (حواس الإنسان): لأن العلاقة كما هو معلوم هي ((المجموع الناجم عن علاقة الدال بالمدلول))^(٣). وهذه العلاقة لا يمكن أن ندركها أو نعقلها إلا بالرجوع إلى معطيات المنظومة الاشارية الحسية.

إذن فالمنظومة الاشارية الثانية (اللغة) كما يسميها بافلوف تستند إلى النشاط الإنساني الحسي أو المنظومة الاشارية الأولى^(٤). فهناك علاقة وطيدة بين المنظومتين، فهما يتبادلان الأثر مع أنهما كيان واحد متماسك. فالمنظومة الاشارية الثانية (اللغة) تنشأ على أساس المنظومة الاشارية الأولى وتتطور بتطورهما^(٥).

وهو الأمر الذي يقودنا إلى الحديث عن علاقة اللغة بالمخ من جهة، وببقية الأدوات الفلسجية اللغوية (اللسان، والشفيتين، والحنجرة، ... الخ) من جهة أخرى.

١-١- اللغة والعقل:-

العقل ذلك الجهاز الأمير على الإنسان والمتحكم بالأوحد بسلوكه والمسيطر على ألوان نشاطاته المختلفة ليس من الغريب والحال هذه أن تكون له سلطة على اللغة لا سيما وهي لون من ألوان النشاط الإنساني أو السلوك الاجتماعي للفرد.

فقد ثبت أن المراكز المخية الحسية التي ترتبط بالسمع والبصر، هي الأساس الذي نشأت منه المراكز المخية اللغوية. فالإنسان لا يستطيع أن يمارس اللغة من دون الاستناد إلى المنظومة الحسية ولاسيما السمع والبصر^(٦).

وهو الأمر الذي نستجليه من الدائرة الكلامية التي توضح عملية انتقال اللغة من الرباط العقلي - عند المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها - إلى الجهاز النطقي عن طريق إشارات يرسلها العقل إليه ، فيبدأ الجهاز النطقي بإطلاق أصوات متتابعة تنتقل بعد ذلك إلى أذن السامع التي تنقلها بدورها إلى العقل، فيقوم الأخير بترجمة تلك الأصوات ، ويعطيها قيمتها الدلالية^(٧).

ومن الممكن - والحال هذه - للعقل أن يتوصل إلى شيء جديد لم يتوصل إليه من قبل، ويخزنه أثناء التفكير في الأصوات المسموعة^(٨).

فإذا كانت العلاقة بين اللغة والعقل بالشكل الذي ذكرناه، فكيف يكون شكل تلك العلاقة؟

إن الجواب عن هذا يستلزم البيان أن في المخ ثلاث مناطق كلامية تقع في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية (الفص الجبهي)، وان لكل واحدة منها علاقة بوجه فلسفي من أوجه الكلام الثلاثة (المتحدث به، والمسموع، والمقروء)، وأن حصول أي خلل في إحدى هذه المناطق يؤدي إلى فقدان وظيفتها الكلامية، لذا فهناك ثلاثة أنواع من الأمراض الكلامية هي^(٩):-

فقدان القدرة على نطق الكلمات.

١- فقدان القدرة على فهم الكلمات التي ينطق بها الآخرون.

٢- فقدان القدرة على تمييز الكلمات المكتوبة أو فهمها.

وليست المنطقة المخية الجبهية التي يُعزى إليها السيطرة على الكلام المتحدث به^(١٠) وحدها المسؤولة عن ممارسة وظائف الكلام فحسب بل هناك منطقتان مخيتان لهما الدور والأثر نفسه وهما^(١١):

أ- المنطقة المخية الصدغية.

وفيهما يقع المركز المخي المسؤول عن استقبال (سماع) أصوات الكلمات (اللغة المنطوقة) وإن إصابة هذه المنطقة بأي خلل يؤدي إلى فقدان القدرة على فهم الكلام المسموع.

ب- المنطقة المخية القذالية.

وفيهما يقع المحلل المخي البصري، فهي تستقبل الانطباعات البصرية للكلمات المكتوبة، وان إصابة هذه المنطقة بأي خلل يؤدي إلى مرض العمى اللفظي، فيتعذر على الشخص في هذه الحالة أن يميز بين الحروف والكلمات.

وبالجملة فإن في الدماغ مناطق مخية مخصصة لوظائف تتعلق باللغة، فهناك منطقة مسؤولة عن النطق، وأخرى مسؤولة عن السمع، وثالثة مسؤولة عن تفسير الرموز

الكلامية والإشارات المرئية. وإن أي خلل في إحدى هذه المناطق يؤدي إلى مرض معين، كفقدان النطق أو السمع أو غيره.

١-٢- اللغة والأدوات الفسلجية الأخرى:-

مرّ بنا أن المنظومة الإشارية الثانية (اللغة) تتبادل الأثر مع المنظومة الإشارية الأولى (الحسية) وأن الأخيرة كانت الأساس الذي نشأت منه تلك الأدوات الفسلجية للكلام. أي أن هذه الأدوات الفسلجية للكلام نشأت بنشوء المراكز المخية اللغوية وتطورت بتطورها^(١٢).

فقد تطورت الأصوات اللغوية البدائية ، وانتقلت من مرحلة كونها كلمات مهمة على شكل صيحات لا تحمل فكراً، إلى مرحلة أخرى ظهرت فيها على أنها إشارات تدل على أشياء بيئية محسوسة ، وتصف حوادث واقعية متفرقة^(١٣).

إن هذا التطور الذي حدث في الأصوات اللغوية البدائية صاحبه تطورٌ في المراكز المخية اللغوية، لأن المنظومة الإشارية الأولى عندما تتطور يوجب ذلك تطوراً في المنظومة الإشارية الثانية ؛ لكي تصبح خليقةً للتعبير عن هذا الفكر السامي^(١٤).

وتطوراً آخر في فسلجة الأدوات اللغوية الأخرى غير المخ كالأذن والعين، وذلك لممارسة كل منهما وظيفة جديدة^(١٥).

أي أن هذا التطور الذي حصل في اللغة ، ونقلها من مرحلة الكلمات المهمة إلى الإشارات المعبرة عن أشياء محسوسة كان له الأثر في تطور أدوات الكلام الفسلجية، فأصبحت للعين - مثلاً - وظيفة أخرى هي وظيفة البصر لجميع الأشياء ومنها الكلمات المنقوشة أو المكتوبة. وكان للأذن وظيفة جديدة هي سماع الأصوات اللغوية المنطوق بها في مراحل متطورة من عملية الكتابة والكلام.

وهذا الأمر يصدق أيضاً على بقية الأدوات الفسلجية الكلامية كالحنجرة واللسان والشفيتين والحبال الصوتية وغيرها ، فقد تطورت هي الأخرى بتطور اللغة ، وكيفت نفسها فسلجياً لتساير هذا التطور.

١-٣- اللغة والمجتمع:-

لما كانت وظيفة اللغة هي التعبير أو نقل الأفكار أو نحوهما، فإن هذا يعني اجتماعية اللغة، أو أن اللغة لا تحيا إلا في ظل مجتمع إنساني. يقول فندريس عن علاقة اللغة بالمجتمع: ((في أحضان المجتمع تكونت اللغة ووجدت يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم))^(١٦).

وإذا اتضحت هذه السمة الاجتماعية للغة، فيمكن القول: ((إن اللغة تتأثر وتأثرًا واضحاً بكل مظاهر المجتمع الذي تنتمي إليه. فتكون بدوية في المجتمع البدوي، والظاهر عليها في مثل هذا المجتمع أنها محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال، وتفتقر إلى المرونة، وتضيق على فنون التعبير))^(١٧).

ولعل هذا الأمر فيه نظر، فنحن نعلم أن الشعر العربي القديم (الجاهلي) انبثق من مجتمع بدوي، وأن أقحاح العرب من البدويين هم مَنْ لهجت ألسنتهم بهذا الشعر، وحفلت به كتب التراث. على أن هذا الشعر كان غنياً بالمفردات والتراكيب المتنوعة، مليئاً بالصور والخيالات الواسعة، مرناً يتسع لجميع فنون التعبير. ولا يستحسن الإطالة في هذا الموضوع على أهميته خوفاً من تشعب الدرس. وقد قيل عن تأثر اللغة بمظاهر المجتمع من هذا القبيل الشيء الكثير، منها إن المجتمع العربي تكثر فيه أسماء الإبل، وإن المجتمع الأمريكي تكثر فيه المفردات التي تدل على الحيض، فلكل لغة عدد من المفردات يشكل معجمها الخاص، وهو صورة تمثل ثقافة الشعب الذي يتكلم بهذه اللغة، وكل لغة لها ما يكفيها من المفردات في التعبير عن حاجاتها، وفي التفاهم والتعاون المشترك^(١٨).

ولا يقف الأمر عند هذا. بل إن طبقات المجتمع هي الأخرى تعمل عملها في التأثير في اللغة، فتكون مظاهر لغوية تخص كل طبقة اجتماعية معينة. فيمكن على ضوءها أن نميز لغة الأطفال من البالغين، ولغة المثقفين من لغة الأميين، ولغة تلك الطائفة الدينية من تلك الأخرى، وهلم جرا^(١٩).

على أن المجتمع لا يقف عند تحديد أشكال اللغة بحسب البيئة أو الدين أو الطبقة فحسب. بل يتعدى هذا ليؤثر في مضمون اللغة، وهو الإشارات والرموز الخاصة بكل لغة. فنجد أن المجتمع هو الذي يحدد طبيعة تلك الإشارات، ويعطيها مضمونها ولولا المجتمع لتحولت تلك الإشارات إلى مجرد حركات عديمة المعنى^(٢٠). فالمهم من الإشارات والعلامات الطبيعية والموضوعية بما فيها الكلمات هو معناها أو ما تشير إليه وليس كيانها الحسي^(٢١). فالمتخاطبون بالإشارات يستعملون إشارات متشابهة في شكلها إلا أن الاتصال بينهم لا يتم عن طريق تلك الإشارات بل عن طريق المعنى المتفق عليه الذي يستنبطونه منها^(٢٢).

وكذا الحال بالنسبة للرموز، وهي الأصوات المسموعة نطقاً أو المرئية كتابةً. فأهمية تلك الرموز تكمن في معناها لا في كيانها المادي المنطوق أو المكتوب^(٢٣). وبعد هذا يمكن القول: إن أركان اللغة اثنان:

فاللغة تحتاج إلى مخ وأعضاء نطقية أخرى سليمة، وبيئة اجتماعية ملائمة، وبفقدان أحدهما لا تتكون اللغة. فإذا عُرِّل الفرد الذي تتوفر فيه جميع الأدوات الفسلجية للكلام عن المجتمع الإنساني – كما حصل في الحالات التي سجلت في بعض الدول كإندونيسيا والهند التي انعزل فيها بعض الأطفال عن المجتمع البشري حين وُجدوا يعيشون في زريبة بعض الحيوانات، وقد اختفت أو كادت تختفي جميع مظاهر السلوك الإنساني عنهم، بسبب ذلك الانعزال، وبدت عليهم طبائع وسلوك تلك الحيوانات التي عاشوا معها مدة غير قليلة، فكانوا عراة الأجساد يأكلون مما تأكل تلك الحيوانات، ويلعقون الماء كما تلحق ويرددون أصواتها وصرخاتها – لم يستطع أن يتعلم الطريقة التي يتصل بها مع بقية أفراد المجتمع فضلاً عن تعلم سلوكهم وطبائعهم، و أن الفرد المولود في مجتمع أو بيئة اجتماعية مستقرة وملائمة والمصاب بالاضطرابات الباثولوجية في إحدى أدوات النطق أو مراكز المخ اللغوية لا يستطيع التواصل مع بقية أفراد جنسه، بسبب عدم قدرته على نطق اللغة أو فهمها أو تمييز رموزها حسب نوع الاضطراب المصاب به ومكان إصابته.

٢- الدائرة الثانية (الفكر) :-

يمكن عد الفكر أحد محتويات أو وظائف العقل إلى جانب الخيال والذاكرة والانتباه والذكاء^(٢٤).

فهو: ((عملية فلسجية مخية تمارسها القشرة المخية على شكل موازنة (بين الانطباعات الآتية من البيئة المحيطة الجغرافية والاجتماعية عبر أعضاء الحس بالاستناد إلى اللغة والمعرفة) وإصدار أحكام عليها واستنباط نتائج إيجابية أو سلبية منها))^(٢٥).

هذا التعريف من الوضوح بمكان، فقد أشار إلى عنصرين تقع عليهما مسؤولية تحقق الفكر، وهما الجانب العقلي (المخ)، والجانب الاجتماعي (بيئة اجتماعية) تسندهما اللغة والمعرفة.

على أننا سنذكر علاقة الفكر بالجانبين العقلي والاجتماعي، ونرجئ الكلام عن علاقة الفكر باللغة إلى الدائرة الثالثة التي دعوناها (دائرة اللغة والفكر) ليكون أتم وأنجع.

٢-١- الفكر والعقل :-

مرّ بنا أن الفكر أحد وظائف العقل، وأن القشرة المخية هي المسؤولة عن العملية الفكرية أو التفكير، وهو يدعونا إلى السؤال عن طبيعة هذه العملية وأدواتها، وبعبارة أخرى كيف تكون تلك العملية ؟ وهل هناك أماكن متخصصة في الدماغ مسؤولة عن التفكير على غرار المراكز المخية اللغوية ؟

جوابه أن الاعتقاد الذي كان سائداً هو أن الدماغ يعمل كعضو واحد شأنه في ذلك شأن القلب والكبد والرئتين مثلاً ، وأنه لا توجد أماكن متخصصة فيه. حتى جاء العالم الفرنسي بوركا (١٨٢٤ - ١٨٨٠) الذي أثبت وجود أماكن وظيفية متخصصة في الدماغ تُسند إلى كل منها وظيفة معينة^(٢٦).

وإذا كان الأمر كذلك ، فأين تقع الأماكن المسؤولة عن العملية الفكرية ؟ يذكر الدارسون أن الحياة الفكرية أو النشاط العصبي أو التفكير يقع عند الإنسان في مراكز الكلام المخية الموجودة في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية^(٢٧).

وقد سبق أن هذه المراكز المخية للكلام نشأت أساساً من المراكز المخية الحسية. أي أن الفكر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمراكز المخية الحسية أو المنظومة الاشارية الأولى. معنى هذا أن التفكير لا يمكن عزله عن الإدراك الحسي، لأن الأخير مصدره الذي يمدّه بمحتواه^(٢٨). وعليه فإن وظيفة العقل أو الدماغ هي التفكير^(٢٩). وبعبارة أخرى إن الدماغ أداة التفكير. لذا فإن العقل لدى الباحث يؤثر في وعي المتلقي الذي يفهم الأفكار التي تلقاها بالرجوع إلى ذاكرته^(٣٠) المخزونة في عقله. أي أن العملية تبدأ من العقل وتنتهي إليه.

٢-٢- الفكر والأدوات الفلسفية الأخرى:-

سبق أن التفكير لا يمكن حدوثه دون سند من الإدراك الحسي، فالأشياء المحسوسة الآتية من البيئة الاجتماعية المعينة عن طريق السمع أو البصر هي التي تزود الفكر بمحتواه. وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نتفكر في الأشياء دون أن نستقبلها أولاً عن طريق السمع أو البصر أو نحوهما.

وخير ما يمثل العلاقة بين الفكر وتلك الأدوات الفلسفية الدائرة الكلامية التي تبتدئ من المخ حيث تفجر الفكرة في المخ صورة صوتية مقابلة لها تنطلق عن طريق جهاز النطق إلى أذن السامع التي بدورها تحولها إلى العقل حيث يقوم الأخير بترجمتها وتحليل رموزها الصوتية^(٣١).

فمن السهل فهم الأثر الذي تؤديه تلك الأدوات خلال عملية بث الكلام من المرسل واستقباله من المرسل إليه عن طريق تلك الأدوات الفلسفية من جهاز النطق عند المتكلم وجهاز السمع عند المتلقي. وقل هذا الشيء عن جميع ألوان المعرفة التي يقوم الباحث بإرسالها إلى المتلقي ويؤثر فيه بها، من ذلك الكلام المكتوب، والأفكار التي لا ترد عن طريق اللغة كالرسم والنحت والنقش والموسيقى ونحوهما، التي تشكل رسالة يتعمدها الباحث لغرض التأثير في المتلقي.

٢-٣- الفكر والمجتمع:-

إذا كان الفكر وظيفة العقل ، أفهو مصدر التفكير أم عامل حدوثه ؟

إن طبيعة الفكر لا يعنها الدماغ، لأنه عاجز عن إيجاد أية فكرة وإن مصدر الفكرة العالم المحيط بالإنسان أو البيئة الطبيعية والاجتماعية^(٣٢).

إذن فالفكر يستمد وجوده من بيئته الاجتماعية. فالمجتمع يؤثر في شكل التفكير حتى قيل إن المجتمع الذي يتكلم بلغة تكون الصفة فيها بعد الموصوف كالعربية والفرنسية هو مجتمع يفكر بطريقة استنتاجية، وإن المجتمع الذي يتكلم بلغة تكون الصفة فيها قبل الموصوف هو مجتمع يفكر بطريقة استقرائية، وإن المجتمع الذي يتكلم بلغة لا توجد فيها أفعال تدل على الزمن هو مجتمع لا يعير للزمن أهمية^(٣٣).

((وليس هذا فحسب بل إن اختلاف اللغات من مجتمع إلى آخر يستلزم اختلاف التفكير كذلك))^(٣٤).

إن أثر المجتمع لا يقف عند هذا الحد من التأثير في الجانب الشكلي للفكر. بل يتعداه ؛ ليؤثر في مضمون الفكر كما هو الحال مع اللغة. فقد سبق أن الإشارات والرموز اللغوية تكمن أهميتها في معناها وليس في كيانها المادي، وإنها تستمد معناها من المجتمع الذي تولد فيه. وهذا يعني أنه لا يمكن فهم تلك الإشارات والرموز اللغوية إلا إذا كانت تحتوي على فكر إنساني مستمد من المجتمع اللغوي، لأنها تكون مجرد أصوات وصرخات عديمة الدلالة فهي أشبه بنهيق الحمير ونباح الكلاب^(٣٥).

إذن فالمجتمع له الأثر الكبير في تحديد شكل التفكير ومضمونه ، وكذا الحال مع اللغة فقد تبين هذا الأثر للمجتمع في تحديد شكل اللغة ومضمونها ، ولذا يمكن القول: إن أركان الفكر اثنان^(٣٦):-

١- ركن فلسفي (مخي).

٢- ركن اجتماعي بيئي ثقافي مكتسب.

فالفكر يحتاج إلى مخ سليم، وبيئة اجتماعية ملائمة ، وبفقدان أحدهما لا يتكون الفكر.

٣- الدائرة الثالثة (اللفظ والفكر):-

قد استقر في أذهان اللغويين ((أن اللغة وعاء الفكر، وأن وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري))^(٣٧).

ولكن هذا الاعتقاد لم يسلم من النقد والتحقيق، فليست الوظيفة الوحيدة للغة هي نقل الأفكار فحسب. بل هناك وظائف أخرى للغة أبرزها نقل العواطف والمشاعر والأحاسيس.

ولذا فإن اللغة لا يصح أن تدرس كأداة عقلية فحسب، لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره، فإنه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس، وليعبر عن إحساسه ومشاعره وعواطفه. فهو يعبر باللغة عن نفسه كما يعبر عن آرائه^(٣٨).

ونتيجة للعلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر فقد ظهرت نظريات لصلة اللغة بالفكر أهمها:

١- نظرية العزل المطلق بين اللغة والفكر^(٣٩):

وهي أقدم النظريات ويمثلها (بيركسون) الفيلسوف الفرنسي، وملخصها أنه لا توجد علاقة أو صلة بين اللغة والفكر، وذلك لاختلافهما من حيث الطبيعة والوظيفة. فاللغة بالنسبة للفكر كالإناء بالنسبة للسائل الذي يملؤه.

وقد وجه نقد إلى هذه النظرية مفاده أنها تقسم جسم اللغة المتكامل على عنصرين هما:

- أصوات الكلمات.

- معناها، أو الفكر الذي تحمله.

فمثلها في ذلك مثل الكيميائي الذي يعزل الأوكسجين عن الهيدروجين في تحليل عنصري الماء. فالماء هو غير الأوكسجين وغير الهيدروجين، فهو سائل وهما غازان. وكذلك فإن اللغة تختلف اختلافاً جذرياً عن الأصوات المنطوق بها وعن المعنى أو الفكر المعزول عن تلك الأصوات.

إن من أهم وظائف اللغة هو الاتصال الفكري بين الأفراد، وإن هذه الوظيفة تفقد أهميتها عندما نفصل صوت الكلمة عن معناه، لأنه يؤدي إلى عزل الوظيفة الاجتماعية للغة عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بالوظيفة الاجتماعية.

٢- نظرية ذوبان الفكر باللغة^(٤٠):-

ويمثلها (ووتسن) عالم النفس الأمريكي، ومفادها عدم وجود فكر مستقل قائم في حد ذاته بمعزل عن اللغة. فالفكر عند أصحاب هذه النظرية لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه، أو لغة خفية خالية من الصوت.

أما النقد الموجه إلى هذه النظرية فهو أنها افترضت دون وجه حق أن الكلام الخفي، أو الحديث مع النفس الذي يبدأ عند الطفل في مرحلة متأخرة نسبياً ينشأ بصورة آلية في أعقاب تضاؤل تدريجي لظاهرة الهمس التي يتحدث بها الطفل مع غيره. في حين أن الهمس والكلام الجمهوري الذي يسبقه هما من حيث الجوهر عملية لغوية واحدة والاختلاف بينهما لا يتعدى أسلوب التعبير نفسه.

على أن النقد الموجه إلى هذه النظرية لا يعني في الوقت نفسه الانعزال التام بين اللغة والفكر كما ظن أصحاب النظرية الأولى^(٤١).

٣- نظرية الاستقلال النسبي بين اللغة والفكر^(٤٢)

ويمثلها (مايكو تيزكي) عالم النفس السوفيتي، و(جون ديوي) الفيلسوف الأمريكي، ومفادها أن اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث الطبيعة والوظيفة والنشوء التاريخي فهي ملتزمة به التزاماً عضوياً غير قابل للعزل.

فالفكر يعبر عن البيئة المحيطة على شكل صور ذهنية وانطباعات فكرية، فهو يرتبط بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ارتباطاً وثيقاً.

أما اللغة فهي وسيلة لتجسيد الفكر ونقله وتداوله بين الأفراد، أي أن اللغة تعين الإنسان على تجسيد فكره وتداوله ولولاها لاستحال ذلك، والفكر يعين اللغة على الدقة ويثرها بالمصطلحات^(٤٣).

إذن فالعلاقة بين اللغة والفكر علاقة وطيدة، فهما متداخلان يضم أحدهما الآخر، فإذا كان المعنى يؤخذ من العبارة فإن العبارة ليست إلا وجوداً خارجياً للمعنى^(٤٤).

وإذا كانت العلاقة بين اللغة والفكر والحال هذه، فمن حقنا التساؤل عن أسبقية أحدهما على الآخر، أو بعبارة أخرى أيهما أسبق اللغة أم الفكر؟

والحقيقة أنه ليس هناك جواب ثابت متفق عليه. فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن اللغة بوصفها إشارات ورموز ولاسيما الهجائية منها ، فيجوز اعتبارها مبدئياً أسبق نسبياً من الفكر.

إلا أن مجرد الإشارة إلى الشيء يرافقه حتماً انطباع ذهني عنه لدى المتلقي^(٤٥)، وعليه يتعذر الفصل بينهما.

وذهب بعضهم الآخر إلى أن الفكر مبدئياً سابق على اللغة ، فالأفكار تنبثق في أذهاننا، ثم تبحث عن العبارات التي تؤيدها والدليل على ذلك هو استعمالنا لأكثر من لغة واحدة للتعبير عن المعنى الواحد^(٤٦).

إلا أن هذا الباحث يعود ثم يقر أننا لا نستطيع أن نحدد فاصلاً زمنياً بين اللغة والفكر^(٤٧).

إن طبيعة البحث تقودنا إلى نتيجة مفادها أن الفكر لا ينفصل عن اللغة انفصلاً تاماً و أنه في الوقت نفسه لا يندمج أو يذوب باللغة ذوباناً تاماً.

فلما أثبت البحث أن اللغة والفكر لهما المراكز المخية نفسها والأعضاء الفسلجية الأخرى نفسها التي تحقق عملية التكلم والتفكير، وأنهما متساويان من ناحية تأثير المجتمع على شكلهما ومضمونهما، فلكل منهما ركنان هما :

١- المخ والأعضاء الفسلجية الأخرى.

٢- مجتمع أو بيئة اجتماعية ملائمة.

فهذا يعني أن اللغة والفكر شيء واحد، فهما كوجهي العملة النقدية الواحدة وأن فقدان أحد الوجهين يعني فقدان العملة^(٤٨)، وبعبارة أخرى إن اللغة بالنسبة للفكر كالدهان بالنسبة للنار^(٤٩).

فهما عنصران تتركب منهما حقيقة واحدة يمكن أن ندعوها (الفكر اللفظي)(٥٠) وفي الوقت نفسه فإن الفكر يمكن أن يستقل نسبياً عن اللغة وبالعكس.

ولذا نمثل لهذه العلاقة بدائرتين متقاطعتين^(٥١)، الأولى دائرة الفكر، والثانية دائرة اللغة. وأن منطقة التقاطع هي ما سمي بـ(الفكر اللفظي)، ويمكن أن نسميه لغة أو فكراً تجوذاً.

ونسمي دائرة الفكر المستقل نسبياً عن اللغة بـ(الفكر العلمي) المعبر عنه بالإشارات. أما الدائرة الأخيرة وهي دائرة اللغة المستقلة نسبياً عن الفكر فيمكن تسميتها بـ(اللغة غير الفكرية) ومنها الانفعالات .

نتائج البحث

لم ينته البحث إلا وقد أقر بعض الحقائق منها:-

- ١- إن اللغة والفكر يتساويان في المراكز المخية نفسها التي تسيطر على عملية تحققهما.
- ٢- إنهما يحتاجان إلى الأعضاء الفلسجية الأخرى نفسها التي تسهم في عملية تحققهما.
- ٣- إنهما متساويان في أثر المجتمع في شكلهما ومضمونهما.
- ٤- إنهما يتساويان في أن لكل منهما الركنين نفسيهما وهما:
 - أ- مخ سليم.
 - ب- مجتمع أو بيئة اجتماعية ملائمة.
- ٥- أن اللغة والفكر لا يستقل أحدهما عن الآخر إلا استقلالاً نسبياً وفي حدود ضيقة لا تدخل في إطار اللغة.

الهوامش

- (١) الخصائص ١: ٣٤.
- (٢) وصف اللغة العربية دلاليًا: ٢٤، ومدخل إلى اللسانيات: ٢٦.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) ينظر اللغة والفكر لنوري جعفر: ٣٧، وأساسيات اللغة لرومان جاكوبسن: ١١١.
- (٥) المصدر نفسه: ٣٨.
- (٦) المصدر نفسه: ٣٩.
- (٧) ينظر في علم اللغة، د. عبد الصبور شاهين: ٩٩ - ١٠٠.
- (٨) ينظر المدخل إلى علم اللغة، كارل تيربونتج، ترجمة سعيد حسن: ٥٤.
- (٩) ينظر اللغة والفكر: ٤١، وهناك دراسة طبية ل (ستيرن) stern أفاد منها علماء اللغة تركزت حول ظاهرة (الأفازيا) aphasia وهي عيوب الكلام الناتجة عن إصابة المخ بجروح. ينظر دور الكلمة في اللغة ،ستيفن أولمان ، ترجمة د. كمال بشر: ٢٣٠ ، وقد نجح رائد البحث في عيوب الكلام البريطاني (د. هيد) head في التمييز بين أربعة أنواع لعيوب الكلام .ينظر دور الكلمة في اللغة : ٢٣٠ وما بعدها ، وينظر أساسيات اللغة : ١١٧ وما بعدها .
- (١٠) ينظر اللغة والفكر: ٤٤ ، ومدخل إلى علم اللغة ، د. محمد حسن عبد العزيز: ٩ .
- (١١) ينظر المصدر نفسه: ٤٣.
- (١٢) ينظر اللغة والفكر: ٤٧.
- (١٣) ينظر: علم اللغة، د. حاتم صالح الضامن: ١٤٥ وما بعدها.
- (١٤) اللغة، فندريس: ٣٥، نقلاً عن مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، نعمة العزاوي: ٤٨.
- (١٥) ينظر مناهج البحث اللغوي: ٤٩.
- (١٦) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما: ٢٤٤ وما بعدها.
- (١٧) المصدر نفسه: ٢٣١ ، ومدخل إلى علم اللغة : ١٠.
- (١٨) ينظر في علم اللغة: ٩٨، ومدخل إلى علم اللغة : ١٤_١٥ .
- (١٩) ينظر اللغة والفكر: ٥١ ، وينظر دور الكلمة في اللغة : ١٨٢ وما بعدها .
- (٢٠) ينظر المصدر نفسه: ٥٤

- (٢١) ينظر المصدر نفسه: ٥٦.
- (٢٢) ينظر علم اللغة: ١٣٩، واللغة والفكر: ٩٨.
- (٢٣) اللغة والفكر: ١٠٦.
- (٢٤) ينظر المصدر نفسه: ٤٠.
- (٢٥) المصدر نفسه. وقد عرفه (همفري) بأنه : ما يحدث في خبرة الكائن العضوي سواء أكان إنساناً أو حيواناً حين يواجه مشكلة أو يتعرف عليها إلى حلها . مدخل إلى علم اللغة : ٨٤.
- (٢٦) ينظر علم اللغة: ١٣٩، واللغة والفكر: ٩٩.
- (٢٧) ينظر المدخل إلى علم اللغة: ٥٤.
- (٢٨) ينظر علم اللغة: ٩٩ – ١٠٠.
- (٢٩) المصدر نفسه: ٩٩.
- (٣٠) ينظر أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٢١٩. وهذا يؤيده الاعتقاد الذي كان سائداً وهو أن اللغة تعكس سايكولوجية الأمة المتكلمة بها أو تفكيرها . ينظر علم اللغة العام ، دي سوسور : ٢٤٨ .
- (٣١) ينظر علم اللغة: ١٤٠.
- (٣٢) المصدر نفسه: ٩٨.
- (٣٣) ينظر اللغة والفكر: ١٠٦.
- (٣٤) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٢٠٨، وينظر علم اللغة: ١٤٥، وعلم اللغة العام ، دي سوسور : ٢٨٤.
- (٣٥) ينظر المدخل إلى علم اللغة، رمضان عبد التواب: ١٤٤.
- (٣٦) ينظر اللغة والفكر: ١٢٢، وما بعدها لفهم النظرية ونقدها.
- (٣٧) ينظر اللغة والفكر: ١٢٤، وما بعدها لفهم النظرية ونقدها.
- (٣٨) ينظر المصدر نفسه: ١٢٥.
- (٣٩) ينظر: اللغة والفكر: ١٢٧.
- (٤٠) المصدر نفسه.
- (٤١) ينظر علم اللغة: ١٤٢.
- (٤٢) ينظر اللغة والفكر: ١٠٥.

(٤٣) ينظر علم اللغة: ١٤٠.

(٤٤) المصدر نفسه: ١٤١، ودور الكلمة في اللغة: ٢٣٠.

(٤٥) المصدر نفسه: ٩٧.

(٤٦) ينظر علم اللغة: ١٤٢.

(٤٧) ينظر اللغة والفكر: ١٣٦.

(٤٨) ينظر في علم اللغة: ٩٧.

(٤٩) ينظر علم اللغة: ١٤٢.

(٥٠) ينظر اللغة والفكر: ١٣٦.

(٥١) المصدر نفسه.

مصادر البحث

- ١- أساسيات اللغة ، رومان جاكوبسن و مورييس هالة ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- ٢- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م
- ٣- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٤، ١٩٩٠.
- ٤- دور الكلمة في اللغة ،ستيفن أولمان ، ترجمة دكتور كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة ، ط ١٢، (د.ت) .
- ٥- علم اللغة، د. حاتم صالح الضامن، مطبعة التعليم العالي، الموصل ١٩٨٩.
- ٦- علم اللغة العام ، دي سوسور ، ترجمة يوثيل يوسف عزيز ، دار آفاق عربية ، بغداد، (د.ت) .
- ٧- في علم اللغة، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت شارع سوريا بناية حمدي وصالحه، ط٣، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٨- اللغة والفكر، نوري جعفر، مكتبة القومي، شارع محمد الخامس، الرباط، ١٩٧١ م.

- ٩- المدخل الى علم اللغة، كارب - تيريو نتنج، ترجمة د. سعيد حسن محيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة شارع النهضة، مصر الجديدة"، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م.
- ١٠- المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ١١- مدخل إلى علم اللغة ، دكتور محمد حسن عبد العزيز ، دار النمر للطباعة ، القاهرة، ١٩٩١م .
- ١٢- مدخل إلى اللسانيات ،دكتور محمد محمد يونس علي ، دار الكتاب الجديد المتحدة،ليبيا، ط ١، ٢٠٠٤ م .
- ١٣- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، د. نعمة رحيم العزاوي، مطبعة المجمع العلمي، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ١٤- وصف اللغة العربية دلاليًا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية: دراسة حول المعنى ومعنى المعنى ، محمد محمد يونس علي ، منشورات جامعة الفاتح ، طرابلس ، ١٩٩٣ م .